الفاطميون
ورأيهم في الخلافة

الخلافة مصدر خَلَفَ، يقال: خَلَفَهُ خِلافة، كان خليفته وبقي بعده، والجمع خلائف وخلفاء، والخلافة نظام من أنظمة الحكم الخاص بالمسلمين، وهو نظام قوامه الدين، فللخليفة على المؤمنين الولاية العامة والطاعة التامة لأنه نائب عن الرسول في تنفيذ الشرائع والسير بمقتضى أصول الدين والمحافظة عليه والعمل على نشره، يلقي خطبة الجمعة ويؤم الناس في الصلاة ويعاقب المارقين على الدين فهو على هذا الأساس حاكم المسلمين الروحي وهو أيضاً حاكم المسلمين الزمني إذ نيط به الاشراف على شئون الدولة وادارة دفة سياستها، يجمع في يده السلطتين الروحية والزمنية. ولما مات النبي (ص) لاثني عشرة ليلة من شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونيو سنة ٦٣٢ م) لم يؤثر عنه نص صريح فيمن يتولى خلافة المسلمين من بعده، ولم يرد في الكتاب الكريم والسنة الشريفة أمر صريح في انتخاب خليفته إلاّ أوامر عامة مثل قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » وقوله تعالى « إنما المؤمنون اخوة » وقوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ومثل قوله عليه الصلاة والسلام (لا فضل لعربي على عجمي إلاّ بالتقوى) وقوله (كلكم لآدم وآدم من تراب) وقوله (اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبدٌ حبشيٌ كأن رأسه زبيبة). ومع ذلك رأى الشيعة وجوب حصر الخلافة في آل بيت النبي عليه السلام ورشحوا ابن عمه عليّ لأسبقيته في الاسلام وملازمته له ومناصرته للدين ولأنه بات في موضع الرسول في الليلة التي هاجر فيها من مكة الى المدينة ولأنه زوج فاطمة الزهراء وأب الحسن والحسين منها وفضلوه على العباس عم النبي وعاصبه الوحيد، لأن العباس حارب المسلمين في غزوة بدر الكبرى ولم يدخل الاسلام إلاّ متأخراً. ونسب غلاة الشيعة الى النبي أحاديث تشهد بأن آل عليّ من حرمة وبما لعليّ من حق في

الامامة بعد الرسول فقالوا إن النبي عليه السلام قال « من سبَّ عليًّا فقد سبني » « ولا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق » « وطوبى لمن أحبك وصدق فيك وويلٌ لمن أبغضك وكذب عليك » (١) وانه عليه الصلاة والسلام عند ما خرج في غزوة تبوك قال له عليّ : أخرج معك فقال له النبي لا ، مع انه حضر كل الغزوات عدا غزوة تبوك هذه ، فبكى علي فقال « اما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنك لست بنبي ، أنه لا ينبغي أن أذهب إلاّ وأنت خليفتي » (٢) وبذلك استخلفه على أهل المدينة في هذه الغزوة وانه عليه السلام لما رجع من حجة الوداع خطب الناس بمكان يقال له غدير خُمٍّ في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة وقال في خطبته « من كنت مولاه فعليٌّ مولاه ، اللهمَّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله » (٣) ولهذا يلبس الشيعة الجديد ويكثروا من عمل الخيرات ويوسعوا على أنفسهم يوم ١٨ من ذي الحجة لأنه يوم عيد الغدير ويعتبره الاسماعيلية أعظم من عيد النحر .

ويروون أيضاً أن النبي عليه الصلاة و سلام قال « أنت سيد في الدنيا ، سيد في الآخرة ، من أحبك فقد أحبني وحبيبك حبيب الله ، ومن أبغضك فقد أبغضني وبغيضك بغيض الله وويلٌ لمن أبغضك من بعدي » (٤) وانه عليه الصلاة والسلام قال « عليٌّ مني وأنا من عليّ يؤدي ديني وينجز وعدي » و « يا علي أنت أخي ووصيي وخليفتي من بعدي وأبو ولدي ، تقاتل على سنتي وتقضي » (٥) .

وانه قال « لأعطينَّ الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، ودعى عليًّا فأتاه وبه رمد فبصق في عينيه ودفع الراية اليه » وانه دعا عليًّا وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال « اللهمَّ هؤلاء أهلي » (٦) . ويروون عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « أقضاكم عليٌّ »

(١) البداية والنهاية في التاريخ لابن الفدا ص ٣٣٠ و ٣٥٤ وسيرة ابن هشام ص ١٥٨ و ١٥٩ والطبري ج ٣ ص ١٤٣ وأسد الغابة لابن الاثير ج ٤ ص ١٦ و ١٩ و ٢٣ والقلقشندي صبح الاعشى ج ١٣ ص ٢٢٦ (٢) البداية ص ٣٣٠ و ٣٣٨ وأسد الغابة ج ٤ ص ٢٦ وابن خلكان ج ٢ ص ٥٥١ و ٤٣ البداية ص ٣٣١ والخطط المقريزية ج ٢ ص ٢٢٣ و ٢٢٤ وشرح الاخبار المخطوط الفوتوغرافي لابن النعمان ورقة ٧ وأسد الغابة ج ٤ ص ٢٨ والقلقشندي ج ١٣ ص ٢٣٠ وكتاب الهفوة في آداب الالفة لابن النعمان المخطوط ورقة ٤٣ ب والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٦٤ (٤) البداية ص ٣٣٥ (٥) شرح الاخبار ورقة ٨ (٦) أسد الغابة ج ٤ ص ٢٦ والبداية ص ٣٣٩ والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٤ .

و«أنا مدينة العلم وعليّ بابها فمن أراد العلم فليأت بابه»[١] وانه عليه السلام قال لعلي «أنت ولي كل مؤمن بعدي»[٢] وانه قال اللهمّ ائتني بأحب خلقك اليّ يأكل معي من هذا الطائر فجاء أبو بكر فردّه، ثم جاء عمر فردّه، ثم جاء عثمان فردّه، ثم جاء علي فأذن له»[٣]. وأكبر الظن أن بعض هذه الاحاديث صحيح وبعضها منتحل، فنحن نستبعد بكاء عليّ وان محمداً وهو عربي كريم يرد بعض أصحابه عن أكلة شهية أتاحها الله له.

وإذا كان الامام علي وأمه وزوجه فاطمة من الموعودين بالجنة[٤] وللحسن والحسين سيدا شبابها، فاننا نعتقد ان النبي عليه السلام مع ذلك لم يستخلفه لبعده عليه السلام عن التحيز والميل الى ذوي قرباه خصوصاً وان الاستخلاف منافٍ لروح الديمقراطية، فآثر أن يترك الأمر شورى لهم ليختاروا من أحبوا. وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على الامام عليّ أن يدخل على النبي وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده أهي فيهم أو لغيرهم؟ فامتنع عن ذلك قائلاً «ان منعنا إياها لا نالها أبداً» ولقد فرح الشيعة عند ما انتخب عليّ خليفة للمسلمين. ولما أرادوا أن يحصروا الخلافة في نسله سألوه وهو على فراش الموت «أفنبايع الحسن؟» فقال لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر» فبايعوا الحسن الذي تنازل عنها لمعاوية

والشيعة تعتبر الخلافة ركناً من أركان الدين وان تعيين الامام من أسرة النبي عليه الصلاة والسلام واجب يلا رجوع الى الأمة؛ فهم لذلك قد حصروا الخلافة في أسرة معينة وفي بيت معين هو بيت الامام عليّ وأصبحت عقيدتهم ان الحسن هو الخليفة بعد أبيه وان الخلافة ارث في بيت علي. ولذلك قامت الشيعة بمقاومة الدولة الاموية ما استطاعوا الى هذه المقاومة سبيلاً. ولما نشأت الحركة التي تدعو لنسل العباس (عم النبي عليه السلام) بالخلافة اتخذ دعاتها الحيلة فدعوا لمبايعة الرضا من آل البيت مبررين عدم ذكر الاسم خوفاً على حياة الشخص من بني أمية، حتى اذا ما نجحت دعوتهم قام ابو مسلم الخراساني وأماط اللثام عن «عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس» وأعلنه خليفة للمسلمين وبذلك عادت الخلافة مرة أخرى الى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبناء عمهم العباس. وبذلك يقرن السفاح عند ما تمت له الخلافة وهو على المنبر «خصنا برحم رسول الله صلى الله

(١) أسد الغابة ج ٤ ص ٢٢ والبداية ٧ ٣٩٥ والعقد الفريد ج ٣ ص ٩٤ (٢) البداية ص ٣٣٨ المشروحة في ج ٧ ص ٣٢٠-٣٢١ (٣) البداية ص ٣٥١ (٤) البداية ص ٣٤٢ والعقد الفريد ج ٣ ص ٩٤

عليه وسلم وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته »[1].

غير أن ذلك لم يرق في أعين العلويين واعتقدوا انهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباس فقاموا في وجه العباسيين ولكنهم كانوا أضعف من أن يتغلبوا عليهم ولما كدوا أنهم لن يتحقق غرضهم ما داموا قريبين من بغداد مركز الخلافة العباسية ، ففرّ عبد الله المهدي الى إفريقية حيث أسس الدولة الفاطمية وأقام خلافتهم ببلاد المغرب سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) عند ما أخذ البيعة من رؤساء كتامه التي أينعت فيهم تعاليم دعاة الشيعة فلقبوه « المهدي أمير المؤمنين » فتحوّلت الخلافة بذلك الى ملكية ثيوقراطية والى حكم استبدادي يتصرّف فيها الخليفة بارادته وأهوائه ويتناقلها الابن عن الأب فيأخذ له الخليفة البيعة من وجوه الناس وكبار القواد في حضرته ، وزاد نفوذ العبيديين عند ما فتحوا مصر في زمن المعز لدين الله رابع خلفائهم وأولهم بمصر ، وبذلك تغدو القاهرة سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) عاصمة الدولة الفاطمية بدلاً من رقّادة والمهدية وتصبح الديار المصرية دار خلافة شيعية تنافس خلافة أموية سُنّيّة بقرطبة ، وأخرى عباسية بالمشرق ، وتغدو القاهرة ملاذ الشيعة ومعقلها الحصين.

ولقد تمتع الخليفة الفاطمي بكل مظاهر الأبهة التي يتمتع بها القياصرة والملوك فلبست الخلافة الاسلامية في زمنه مظهر الملك وأبهته ، وارتدت سماوة الحكم وعظمته ، وبعد أن كان الخلفاء الراشدون لا يحجبون عنهم أحداً اتخذ الخليفة الفاطمي الحجاب [2] وأقام الشرطة لحراسته [3] وبعد ان كان الخلفاء الراشدون بعيدين عن مظاهر الترف يسوسون ملكهم بما يحدثه الوازع الديني في النفس ، نجده يتخذ المقصورة في المسجد خوفاً مما حدث للامام عليّ ، ويصلي بها منفرداً عن الناس فاذا سجد قام الحرّاس على رأسه رافعين السيوف ، وبذلك عاش تحوطه الأبهة والعظمة ، يسوس ملكه بقوة البطش وحد السيف . وبعد ان كان الخلفاء الراشدون يظهرون للناس كأفراد عاديين أصبح الخليفة الفاطمي ينحني أمامه الداخل عليه والخارج من حضرته ويقبل الأرض بين يديه ويلثم يديه ورجليه [4] وأصبح يعتقد نفسه وحده القمين بفهم القرآن والسنة والقادر بمفرده على تفسيرهما لأنه مستودع العلم الشرعي تنتقل هذه الصفة منه الى ولده . وكان يقول إن النبي عليه السلام عند ما سئل عن قوله تعالى

(١) وردت الفكرة في رسالة هجرة المؤيد المخطوطة الفوتوغرافية ج ٤ ورقة ٤ . (٢) القلقشندي ج ٣ ص ٤٧٧ و ٥٠٠ (٣) القلقشندي ج ٣ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ (٤) القلقشندي ج ٣ ص ٤٩٩

« قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى » أجاب ان القربى هم « عليّ وفاطمة والحسن والحسين » وانه عليه السلام قال « من أحبهم فقد أحبني ومن أبغضهم فقد أبغضني و « ان هذا الواجب للأئمة من ذريته في كل عصر وزمان لأنهم أهله »[1]

ويحدّثنا ابن النعمان في مخطوطه « كتاب المسة في آداب الأئمة »[2] عن الآداب الواجبة على الناس في السلام على الأئمة والكلام بين أيديهم فيقول « تعظيم الأئمة صلوات الله عليهم من تعظيم الله عزّ وجلّ انه إنما يراد من تعظيمهم طاعته ويبتغى فيه مرضاته لا شريك له . وقد رأينا أوصياءهم وولاة عهودهم يقبلون الأرض في سلامهم عليهم بين أيديهم إجلالاً لهم وعلماً بقدرتهم ومعرفة بما أوجب الله لهم ، لو سجد ساجد لولي من أولياء الله إعظاماً لله لم يكن ذلك بمنكر . فقد ذكر الله عن أبوي يوسف وإخوته أنهم خرّوا سجداً فلم يعب ذلك من فعلهم وأعاب الذين يسجدون للشمس من دون الله . وقال لا تسجدوا إلاّ لله فانما نهى عزّ وجلّ عن السجود لأحد من دونه يتخذه إلهاً معبوداً . فأمّا السجود تعظيماً له فلم ينه عنه » ثم يقول « فينبغي لمن واجه الامام أن يبدأ بالسلام عليه ثم يقبّل الأرض بين يديه ويعتقد ذلك تعظيماً له وتقرباً إلى الله ويقول في السلام عليه قبل انحطاطه لتقبيل الأرض : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ويكون ذلك بحيث يراه الامام وان كان المسلم بحيث يسمع ردّ الامام عليه السلام لم ينحط الى الأرض لتقبيلها إلاّ بعد فراغ ردّ الامام عليه بالسلام. ثم إذا قبل الأرض قام فان حضر لأمر يريد الكلام فيه مما يجب وينبغي لمثله أن يتكلم به وكان ممن ينبغي لمثله الكلام بين يدي الأئمة تكلم وإلاّ استأذن في الكلام فان أذن له الامام تكلم وان لم يأذن له انصرف » . ثم يشرح الرسوم التي يجب على الناس أن يفعلوها في حضرة الامام فيقول : « فاذا قام القائم بين يدي الامام فليقم قائماً معتدلاً كقيامه في الصلاة ، وليرم ببصره الى الأرض إجلالاً وهيبة له ، ناظراً إلى الامام من تحت طرفه ويخفض جناحه » الى أن يقول « ولا يعبث بيديه ولكن يرسلها إرسالاً أو يضع يمينه على شماله تحت صدره ويلزم الصمت الى أن يسأله الامام » الى أن يقول : « وفي حال من يرفع الأمور اليه من جعل ذلك له فيتكلم فيه وفيما ينبغي له الكلام فيه ما استمع الامام منه ، فان أعرض عنه أو

(١) كتاب المسة في آداب الائمة لابن النعمان المخطوط ورقة ٧ (أ) (٢) كتاب المسة ورقة ٦٠ (ب) و ٦١ (أ) .

قطع كلامه لأمر عرض له أو لغير أمر فلينصت المتكلم حتى يأذن له الامام في الكلام بلفظ أو بإيماء أو باستفهام، فحينئذ يعود الى ما كان فيه وإلاّ سكت على ما قطع الكلام عليه ولا يرجع من غير إذن له فيه ». « وليكن كلامه إذا خاطب الامام كلام متخافت بلفظه بقدر ما يسمعه الامام ولا يرفع صوته عنده . فقد سمى الله عزّ وجل عن رفع الأصوات فوق صوت نبيه » الى أن يقول : « فاذا خاطبه الامام أصغى الى لفظه . وكذلك ان كان حديث الامام لجماعة من بحضرته فينبغي لكل واحد منهم الانصات والاصغاء اليه ، وكذلك إن خاطب أحدهم خطاب علانية غير سرّ ، فينبغي لمن سمع خطابه الاصغاء اليه وطلب الفائدة منه فان في كل لفظة يتفظ بها الامام حكمة لمن يتدبرها ويوفق لفهمها ومعرفتها ». « ولا يرى من سمع كلام الامام ان لفظة من ألفاظه تخرج مخرج هزل أو تقع موقع عبث أو تجري بغير فائدة ، وان ظهر ذلك للسامع منه فينبغي له أن لا ينزله بهذه المنازل ، وأن يعلم أن الله سبحانه قد برّأهم صلوات الله عليهم من ذلك ، وأن فهمه هو الذي قصر عن إدراك معرفة الفائدة من لفظه ». فان جرى في المجلس من الكلام ما تبسم أو يضحك عند الامام ، فانه لا ينبغي لأحد من جلسائه ، والقائمين بين يديه أن يضحكوا لذلك ، ولكن ينبغي لهم أن يطرقوا بأبصارهم متبسمين ويظهروا الوقار والسكينة ويعظموا مجلس الامام من الضحك فيه فليس ذلك فيه إلا له عليه السلام .

ثم يحدّثنا عن الآداب التي يجب أن يتصف بها الناس القريبون من الامام عند ما يريد أن يتحدّث أحد منهم حديثاً لا يريد أن يعلمه غيره فيقول : « وان خاطب أحداً منهم أو من غيرهم سرّاً فينبغي لمن قرب منه أن يباعد عنه وجليسهم ألاّ يصغوا اليه ولا يلتفتوا نحوه حتى يقضي نجواه » ولا ينبغي لهم أن يتناجوا في مجلسه ولا أن يتحدثوا بينهم حديثاً دونه وينبغي أن يكون جميع ما يجري في مجلسه منه ومن جلسائه سرّاً لديهم وأمانة عندهم ». ثم يتكلم عن رسوم صحبة الامام فيقول : « ينبغي لمن سار الأئمة في سفر أو حضر أن يلزم الموضع الذي فيه رتبته فان كان فيمن رتب أن يسير بين يدي الامام سار كذلك ولزم ما أمر به وجعل همته وشغله التحفظ لمكان الامام من غير أن يكثر التلفت اليه » . « يتفقد ذلك باختلاس من نظره » ، « يرى منها الامام خلقه فيعرف أين هو منه ومكانه من القدر الذي رتب له » ، « فان بعد عن ذلك وقف حتى ينتهي الامام الى الوضع الذي يرى ان ما بينه

وبينه هو القدر الذي رتب له » [١].

والفاطميون يرون ان طاعة أولياء الله طاعة لله ، ومبايعتهم مبايعة لله ، ومن خانهم فقد خان الله ومن وفّى لهم فقد وفّى لله ، ومن أدّى أماناتهم فقد أدى أمانة الله لان الله تعالى يقول في كتابه العزيز « ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » ويقول في موضع آخر « من يطع الرسول فقد أطاع الله» ويقول في موضع ثالث « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» ويقول النبي عليه الصلاة والسلام «من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع الامام فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى الامام فقد عصاني» [٢]

لذلك يقول الصادق جعفر بن محمد صلوات الله عليه « نحن أبواب الله وأصابه لعباده ومن تقرّب بنا قرب ، ومن اشفع بنا شفع ، ومن استرحم بنا رحم، ومن أعرض عنا ضلّ » [٣] ويروون عن الحسين بن علي أنه قال «من أحبنا بقلبه وجاهد معنا بلسانه ويده فهو معنا في الرفيق الأعلى، ومن أحبنا بقلبه وذب عنا بلسانه وضعف أن يجاهد معنا بيده فهو معنا في الجنة دون ذلك منزلة، ومن أحبنا بقلبه وضعف أن يجاهد معنا بلسانه ويده فهو معنا في الجنة دون ذلك وليس دون ذلك شيء » [٤].

ولقد استمرت طريقة اختيار الخليفة الوراثية سائدة في الدولة الفاطمية فكان الخليفة عندما يشعر بدنوّ أجله يعهد بالخلافة قبل وفاته [٥] بان يرى أن يكون ولي عهده وتتجدّد البيعة بعد وفاته له بالجامع، وله أن يخفي موت والده إن رأى لزوماً لذلك ، فمثلاً ستر الخليفة القائم بأمر الله موت والده المهدي مدة ، كما أخفى الخليفة المنصور بالله موت والده القائم خوفاً من أن يعده أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجي. فلما تغلب عليه أظهر موت والده سنة ٣٣٦ هـ. مع أنه مات سنة ٣٣٤هـ. كما ستر المعز موت أبيه المنصور مدة [٦]

ولما استولى على الدولة الفاطمية الضعف ، انتقل هذا الحق لأصحاب الحل والعقد فكانوا يختارون الخليفة ممن يقتضون غير مراعين أن تكون الخلافة للاكبر فالاكبر من البيت

(١) كتاب الهمة ورقة ٥٦ ب و ٦٦ ا و ٦٧ ا (٢) كتاب الخراج لابي يوسف ص ١٠ (٣) كتاب الهمة ورقة ١١٦ ا (٤) كتاب الهمة ورقة ٦ ب و ١٠ ا (٥) أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر المخطوط الفوتوغرافي في ورقة ١ و ٣ و ٤ و ٨ ؛ والنجوم الزاهرة لابن المحاسن ج ٤ ص ١١٢-١١٣ و ١٧٦ وأخبار مصر لابن ميسر ج ٢ ص ٥٢ و ٥٤ (٦) اتعاظ الحنفا للمقريزي ص ٥٤ و ٥٦ وكتاب المختصر في أخبار البشر لابي الفدا ج ٢ ص ٨٠ و ٩٥

مؤكداً إمكان قيام « التراجيدية » القديمة بجوار المسرحية العصرية التي تجود بها قرائح الابداعيين وهكذا ظلّ يتوقل صُعُداً في معارج الشهرة الى أن انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية واقتعد مقعده بين صفوف الخالدين.

ومن يومئذٍ والشاعر عاكف على انتاجه، موالٍ لنظم أشعاره ونثر كتاباته. ولكنه في غمرة دأبه وجهده، لا ينسى مطالب القلب. فهو يتنقل، ولو برغمه، بين محابه ومواجده، كالنحلة لا تني ترفرف فوق الورود والرياحين، لترشف من عطورها وتمتص من رحيقها، شهدها الجني ورضابها المعسول.

ولكنه أبداً شاعر الألم والحزن، لا يسلمه الحب إلاّ الى التعذيب، ولا يسلمه التعذيب الاّ الى البكاء والأنين:

لقد نقمت قوّتي وحياتي،
وطمعت في صداقتي ومرحي،
وسُلبتُ حتى انتخاري،
الذي كان يُبشّرُ بنبوغي.

—

وحينما عرفت الحقيقة،
ظننتها وفية صديقة،
فلما فهمتها ووعيتها،
مجنتها وكرهتها!

—

ولكنها أبدية سرمدية،
وهؤلاء الذين حولها،
جهلوا كل شيء!

***

ومن يومئذ توالت عليه النكبات والمتاعب، وجاء عام ١٨٤٢ مليئاً بحوادثه وأحزانه